

الفصل السابع

تغير شكل المراهقة بتغير ظروفها

عرضنا في الفصول السابقة أشكال أربعة للمراهقة ، ووصفنا سماتها المميزة والعوامل المؤثرة فيها ، وأوردنا الأمثلة الموضحة لكل شكل منها . وإذا كان بعض المراهقين يجابهون ظروف ثابتة غير متغيرة لفترة طويلة وبذلك تنحصر مراهقتهم نحواً واحداً متغلباً ، فإن هذا لا ينطبق على مراهقين آخرين — لهم الغالبية — ممن لا يدوم بهم الحال الواحد طويلاً ، فلا تلتزم مراهقتهم بالتالي بشكل واحد ثابت . . . فلقد يطرأ التغير على المستوى الاقتصادي للأسرة أو للمراهق نفسه ، وقد تختلف حالة النشاط الجسمي أو العقلي للمراهق ، وقد تتبدل كذلك مجموعاته وبيئته التي يتعامل معها فتتغير بذلك اتجاهاته وعلاقاته الاجتماعية ، إلى غير ذلك من الخبرات والظروف المادية والنفسية التي تعرض للناس في حياتهم عادة ! ولأننا لا نجافى الصواب إذا قلنا إن التغير والتطور يكاد يكون هو القاعدة ، والجهد ودوام الحال هو الاستثناء . . . وإذا رجعنا إلى نفس الأمثلة التي أوردناها لتوضيح الأشكال المختلفة في المراهقة ، لنحنا فيها أحياناً أدلة تغيرات طرأت على شكل المراهقة مع التغير في بعض ظروفها وعواملها .

الفعالة . وربما كانت التغيرات في تلك الأمثلة طفيفة أو متأخرة الحدوث ،
عما لو ن المراهقة بلون واحد غالب في جانبها الأكبر — على أن في حالات
البحث ، حالات قاطبة الدلالة على أن المراهقة لا يجب أن تثبت على شكل
واحد ، بل قد تتخذ شكلاً ما في قسم منها وتتخذ شكلاً مخالفاً في قسم
آخر . وقد يحدث التغير أكثر من مرة ، فتتخذ مراهقة الفرد الواحد
عدة أشكال متلاحقة نتيجة للهرات والأحداث التي يتعرض لها المراهق !
وكما تتطور مراهقة بعض الأفراد من أحد أشكال عدم التوافق إلى صورة
التوافق والازتزان ، فإن عكس ذلك يمكن حدوثه أيضاً — كما سيتبين من
الأمثلة التي ستلى .

والتغير في شكل المراهقة بتغير ظروفها ، التي تبرهن هذه الأمثلة عليه ،
له نتائج علمية والتربوية الهامة . — فأما النتيجة الأولى فهي التثبت
من قيام الصلة الوثيقة بين شكل المراهقة — المتوافقة أو غير المتوافقة —
وبين ظروفها البيئية الاجتماعية . (ولعل هذه الصلة قد وضحت وضوحاً
كافياً فيما سبق من تحليل للموامل المؤثرة في أشكال المراهقة المختلفة) .
والنتيجة الثانية هي أن الساوك الإنسانى من مرونة كبيرة تسمح له بالتعديل
والتهذيب والتطوير . والنتيجة الثالثة مترتبة على سابقتها ، وهي تأكيد قيمة
التوجيه والملاج واستخدام الأساليب التربوية المناسبة ، في التأثير على صورة
الانحراف أو العدوان أو الانطواء . . . أما النتيجة الأخيرة فنتيجة بها إلى أصحاب
المحاولات المختلفة في تقسيم فترة المراهقة إلى مراحل عامة متميزة في نمو
المراهقين جميعاً ؛ تبدأ كل مرحلة منها وتنتهى في سن معينة ، ولها

خصائصها السلوكية المحددة التي تخالف بها المراحل الأخرى ، ويطلق عليها مرحلة المراهقة المبكرة أو الوسطى أو المتأخرة أو غير ذلك من الأسماء . . . إننا لا نستطيع أن نجد في الدراسة الحالية الدليل الكافي على اختلاف سلوك جميع المراهقين — أو حتى غالبيتهم — اختلافًا هامًا مترتبًا على الفترة الزمنية التي يمرون بها من أعوام مراهقتهم . وإنما نجد « مراحل » يختص بها كل فرد بمفرده ، ويختلف فيها شكل مراهقته وسماتها المميزة باختلاف عوامل خاصة وظروف خاصة في حياته ، وكذلك بتأثير المنحنى الخاص بنموه الذي لا يتفق فيه مع منحنى النمو لآخر غيره ! ونعتقد أن التقسيم إلى مراحل خاصة بكل فرد أكثر جدوى ودلالة من أى تقسيم آخر يفترض فيه التشابه بين المراهقين جميعًا .

وقد اخترنا من حالات البحث الأمثلة الخمسة التالية كنماذج لاتجاهات مختلفة في تطور المراهقة ، ولأسباب مختلفة أدت إليه : —

١ — اتصفت هذه المراهقة في جانب كبير منها بالانطواء والانصراف إلى القراءة وكتابة الذكريات وإلى التأمل الدينى الفلسفى (أى أنها كانت أقرب إلى الشكل الثانى للمراهقة الذى سبق وصفه) . وأثر على هذه الاتجاهات عدة عوامل ، من بينها افتقار الجو الأسرى إلى التعبير الصريح عن الحب ، وعدم وجود أخوات للمراهق ، وانفاسه — منذ الطفولة — فى بيئات دينية صرفة . . . ثم تمت للمراهق خبرة ، كان من شأنها تلطيف جو المراهقة واقتربها من التوافق والإشباع (الشكل الأول) .

فقد اتجه المراهق إلى استقلال فراغه في الصيف بالاستغفال في أحد المحلات ، حيث باشر عملاً يدوياً مكن له من موازنة اتجاهاته النظرية المتقلبة ، وحقق له قسطاً من الاستقلال الاقتصادي عن المنزل . وفي مجال هذا العمل ، قابل فتيات من زميلاته ، أشبهن عنده حاجته إلى « الأخت » . وكان قد التحق بالجامعة كذلك ، فأسهم جوها المختلط في أن تندحر مراهقته نحو الاستقرار الماطفي والمهدوء والعمل المنتج !

فقد كان المراهق ينتمي إلى أسرة من الطبقة المتوسطة ، ممنة في التزمت والحفاظة . وأدى افتقار المراهق للجو الحاني المطوف في الأسرة ، إلى محاولة متعمدة للهروب من المنزل بعد أن خلف وراءه رسالة عدد فيها الأخطاء التي أخذها على أبويه ، وبالأخص تفرقتهما في المعاملة بينه وبين بعض الإخوة . . . وقد نجحت هذه المحاولة في تحقيق الغرض منها حيث بحث عنه والده بحثاً طويلاً وطوقه بذراعيه حين رآه . ويصف المراهق شعوره في تلك اللحظة ، فيقول : « أحسست بأن لي قيمة كبيرة في الأسرة ، فشاع الاطمئنان في نفسي . . » ، وقد انعكس افتقار المراهق للجو الأمري الحاني في اللوحات التي رسمها ، والتي كان من بينها رسوم لأمهات يحتضن أبناءهن ، ولعائلات تفرش الرمال سيفاً . . . كذلك كان المراهق يرسل عدداً من الفتيات الأجنبية في الخارج ، ليعوض بذلك افتقاده الأخوات .

وكان المراهق منخرطاً منذ طفولته في سلك « شمامسة » الكنيسة ،

فتأججت حياته — وخصوصا لانعدام النواحي الرياضية والعملية فيها — إلى التأملات الدينية الفلسفية ، وإلى الاهتمام « بتحليل النفس والخبرات التي تمر بها » ، وإلى كتابة المذكرات الخاصة التي وصف فيها خواطره وأحواله وكذلك تأثراته بالطبيعة وما فيها من ألوان الجمال .

ثم بدأت مرحلة جديدة من الاستقرار والإشباع النسبي في حياة المراهق ، وذلك عندما اتجه إلى استغلال العطلة الصيفية في الحصول على المال اللازم لتوفير بعض حاجياته . فقد اشتغل كاتباً في أحد مصانع التطريز ، وما لبث أن اكتشف ميله إلى العمل بالتطريز نفسه ، فأخذ يتدرب على إحدى الآلات حتى أتقن العمل بها ، مما حدا بصاحب العمل إلى إلحاقه بهذه الصناعة — وبذلك بأشر المراهق لأول مرة في حياته نشاطاً عملياً يدويا وازن به بعض الشيء طفيان اتجاهه النظري السابق ، وحقق به استقلالاً اقتصادياً جزئياً ! وأتاح له العمل — على حد قوله — إشباع حاجته إلى « الأخت » في أحاديثه مع المميلات وزميلات العمل . . وقد تطور بعد ذلك من هذه المرحلة إلى تخصيص عاطفته نحو إحدى زميلاته . وساعد التحاق المراهق بالجامعة كذلك واندماجه في جوها المختلط على اتزانه النفسي وتخفيفه من كثير من توتراته السابقة .

٢ — وهذه مراهقة طبعها لفترة غير قصيرة التمرد والعدوان والمغامرات العابثة ، (الشكل الرابع) وذلك بتأثير الثلل التي شارك فيها المراهق والجو الذي يشبه الإباحية في النشأة المنزلية . . فما لبثت حتى تعدت صورتها

واقتربت من المراهقة السوية المتكيفة ، (الشكل الأول) بعد انضمام المراهق إلى أحد الأندية الدينية الاجتماعية وبعد أن عهد إليه في المدرسة بمزيد من المسؤولية ! .

فقد كان هذا المراهق ينتمى إلى أسرة أرستقراطية ، مغالية في الاتجاه « المعصرى » التحررى ! وسمحت هذه الأسرة للمراهق بحرية كاملة في التصرف ، مادام محافظاً على شرط واحد هو نجاحه المدرسى ! . . . وكان المراهق لذلك الممتاز ينجح فعلاً في دراسته ويتفوق فيها . كذلك كان يتمتع بتكوين جسمى ممتاز وحيوية متدفقة ، اتجهت — بحكم الوسط المحيط وانعدام التوجيه الأبوى — إلى العبث والانسياق مع الأعصاب في تيار المفامرات المستهجرة . . . أما في المدرسة ، فقد كان المراهق كثير التحدى والنقد لمدرسيه ، وكان يفاخر بأنه أقدر من بعض مدرسيه على الشرح وحل مسائل الرياضة وغيرها . كما تزعم حركات (التهريج) و (التنكيت) في الفصل وخارجه ! ولجأت المدرسة عندما تكررت مشاغباته بها إلى إبعاده عنها يوماً أو أكثر ، فكان يأتى بأى شخص يقابله في الطريق العام ، ليوقع المدرسة التمهيد اللازم نيابة عن والده ! ! .

وقد تغير حال هذا المراهق تغيراً شاملاً نتيجة عنصريين جديدين في حياته ؛ أولهما أنه انضم إلى أحد الأندية التابعة للجمعية الدينية ، وفيه تعرف على أحد رواده ووثق به ، فباح له بمجوانب حياته التى لم يكن راضياً عنها وبالمزلق التى انحرف إليها سلوكه ، واستطاع هذا الرائد أن يوجهه إلى

أهداف إيجابية بانية وأن يرتقى بقيمه إلى مستويات اجتماعية أعلى . . وأما
العنصر الثاني ، فهو أن المدرسة تنهت — متأخرة — إلى استغلال كفاية
هذا المراهق وسميويته الدافقة ، بأن عهدت إليه بأن يكون زعيماً و«رائداً»
لفصله . وكأنا قد عثر المراهق أخيراً على ضالته والدور الذي يتناسب
معه ، فأصدر « مجلة حائط » ممتازة ، وكون في الفصل « فرقة إنقاذ »
يساعد بها التلاميذ بعضهم بعضاً في تفهم دروسهم ، واشترك أيضاً في كرة
السلة وبرز فيها . . . وساعد كل هذا على إرضاء طموحه وقدراته المتميزة ،
وبالتالي على اختفاء سلوكه العدواني في المدرسة ، حيث أصبح محبوباً من
ناظرها ومدرسيها بالإضافة إلى زملائه .

٣ — وفي هذه الحالة الثالثة ، تطورت المراهقة تطوراً يعاكس
ما حدث في الحالتين السابقتين . فقد بدأت هادئة متوافقة ، حيث كان
المراهق ناجحاً اجتماعياً ومقبلاً على الرياضة وناجحاً في دراسته كذلك ،
(الشكل الأول) ثم حدثت أزمة في العلاقات داخل الأسرة ، ترتب عليها
تدخل أمن المراهق ، وانسحابه من المجتمع ، وإصابته بما يشبه الانهيار
النفسي (الشكل الرابع) .

فقد كان هذا المراهق السابع بين ثمانية من الأبناء في أسرة رقيقة
الحال ، وكان والده مهتماً اهتماماً خاصاً بتعليم أبنائه ، وخاصة لأنه لم يحظ
هو نفسه بالقدر الكافي من التعليم . فكان اهتمام الوالد هذا مدعاة لعناية
المراهق بدروسه ولنجاحه بتفوق فيها . كذلك اهتم المراهق بالرياضة

وبالنواحي الاجتماعية التي مارسها في أحد الأندية . وكانت حياته النفسية آمنة بصفة عامة ومشبعة إلى حد كبير . . .

وحدث بعد ذلك أن أُحيل الوالد إلى المماش ، ثم تزوج الأخ الأكبر وإن ظل يقيم مع باقي الأسرة . . . ودب سوء التفاهم الشديد بين الأخ والأب ، بسبب احتياج الأخير إلى المال لإتمام تعليم أبنائه وعجز الأول عن المعاونة الكافية بعد أن تزوج ! وسببت الإحالة إلى المماش ضيق أخلاق الأب وسرعة انفعاله ، كما وجد الأخ فرصته للخروج على سيطرة أبيه — فتطور الخلاف بينهما إلى درجة تلوّن معها الجو الأسرى كله بلون حالك ، وتأثر به المراهق فأصابته حالة من الاضطراب النفسى الشديد . . . وكان من الأعراض المرضية التي عاناها المراهق ، (السكوايس) الليلية المتكررة ، و (السيرجان) وعجزه عن تركيز انتباهه ، وتصوره سماع أصوات مختلفة (هلوسة سمعية) ! ولقد تأثر في كل ذلك بإحساسه بالخزي وعار الأسرة وبمشاعر النقص الحادة عنده . . . كذلك لجأ المراهق إلى اعتزال الناس ، وكان لا يجرؤ على النظر إلى محدثه وخاصة إذا كان ممن يكبرونه سنّاً أو مركزاً ! .

ومن الطريف أن حالة المراهق تحسنت بعد إد أقام أخوه بعيداً عن الأسرة ، فساد الهدوء المنزل . . . وعند ما اشترك في الصيف التالى مع بعض زملائه في مشروع تجارى ، تخفف كثيراً من خجله وزادت قدرته على الاندماج بالناس كما زادت كذلك ثقته بنفسه !

٤ — وتوضح هذه الحالة الرابعة ، كيف أثر الصديق الخاص للمراهق على تغيير اتجاهاته وقيمه في الحياة وعلى تحول شكل المراهقة الأصلي . . .

فقد كان المراهق أصغر أبناء أربعة في أسرة محافظة ، أثرت أساليبها في التربية على ضغط شخصيته ضغطاً شديداً . وكان إلى جانب هذا يشعر بالنقص لضعف جسمه ، ويخشى ممارسة الرياضة ، بل ياتمس الأعذار لتجنب الاشتراك في حصص (الألعاب) بالمدرسة . . . ولكن هذا انطوى المراهق على نفسه ، واهتم بالتركيز على دراسته وبالتفوق فيها كوسيلة لتمويض النقص وللحصول على التقدير . كما استغرق في الجنسية الذاتية وأحلام اليقظة وبقي مميزات صورة الانطواء (الشكل الثاني) .

وكان المراهق صديق خاص يخالفه في اتجاهاته ونوع القيم التي يؤمن بها ، حيث كان صديقه — على عكسه — رياضياً ، وكان كذلك لا يلقى اهتماماً كبيراً إلى المواد الدراسية ! . . . وبينما اجتهد الصديق في إغرائه بالرياضة وبقيمتها لتنمية الجسم وللحصول على تقدير الآخرين ، اجتهد المراهق في إغراء صديقه بالتركيز على الدراسة وبقيمة الشهادة المدرسية . وكان أن نجح المراهق في التأثير على صديقه وحثه على الاهتمام بالدراسة ، حتى تهيأ لهما الالتحاق سوياً بكلية من كليات الجامعة ؛ الأمر الذي جعل أسرة الصديق ترضى رضاً كبيراً عن هذه الصداقة بينهما . . . ومع أن المراهق لم يتحول إلى الاهتمام بالرياضة في المرحلة الثانوية ، إلا أنه تأثر بصديقه

تأثراً كامناً ، ظهرت علاماته بعد الالتحاق بالجامعة . فقد أقبل على رياضة الملاكمة حتى برز فيها ، وحصل على بطولات رياضية مكنته من فرص التقدير الاجتماعي . كذلك ساعدته إقامته بميداً عن الأسرة على التخلص من آثار التربية الانسكالية الأولى ، فتغيرت صورة الانطواء وحل محلها الصداقات المتعددة والعلاقات الاجتماعية الواسعة ، واقتربت مراهقته بذلك كله من التوافق والإشباع (الشكل الأول) !

هـ — وربما كانت هذه الحالة الخامسة تمثل ما حدث لعدد من المراهقين القرويين الذين كانوا يعيشون في المدينة خلال السنة الدراسية ويمضون العطلة الصيفية بالقرية ، فيختلف شكل مراهقتهم شتاء عنه صيفاً ! — يتحكم في ذلك اختلاف تأثيرات كل من المدينة والقرية ، بالإضافة إلى وجود الرقابة الأسرية في القرية والتخفيف منها مع ممارسة تبعات الحياة الاستقلالية بالمدينة ! (وينبغي أن يستثنى المراهقون الذين كانت ظروفهم بالقرية ميسرة ومساعدة على التكيف السوي ، وكذلك المراهقون الذين كانت ظروفهم الميشية بالمدينة من أسباب صعوبات تكيفهم بها)

والمراهق الذي تخصصه هذه الحالة هو أكبر إخوته ، وكان والده موظفاً بالقرية وإن لم يكن من أهلها الأصاين . وقد أقام المراهق بالمدينة في أثناء الدراسة الثانوية ، فسكن مع أخ يصغره وقرينين أخوين يقاربانه سنواً .

واستطاع المراهق في المدينة أن يشبع حاجته إلى الانتماء والتقدير ،

حيث صادق قريبيه الذين شاركاه المسكن وصادق كذلك أصدقاء لها من أعضاء جمعية دينية ، كان لها نشاطها الاجتماعي والخيري الكبير . وأحسن المراهق في هذا الوسط وفي مساهمته في نشاط جمعية بالإشباع النفسي وتحقيق الذات . كما كان سعيداً بحياته الاستقلالية في المدينة ، وبمناخه بأمر نفسه ، وعدم تعرض تصرفاته للرقابة أو النقد . وكان كذلك ناجحاً متفوقاً في دراسته !

وأما القرية — التي كان يقضي بها عطلة الصيف — فكانت خالية من وسائل الترفيه وتمضية الفراغ ، ولم يجد فيها كذلك أنبساطاً من المتعلمين ليتخذ من بينهم الأصدقاء . وكانت رقابة أسرته عليه وتدخلها في كل صغيرة من أموره ، مما ضايقه ودفعه في أحيان كثيرة إلى الثورة وتحدي سلطان أبيه . . فكانت توترات المراهقة بالنسبة إليه ، أكثر تعقيداً في الصيف منها في بقية العام ! !

اختلاط شكل المراهقة

إلى جانب تطور المراهقة من أحد أشكالها إلى شكل آخر كما وضح من الأمثلة السابقة ، تقابلنا في البحث الحالي حالات جمعت في آن واحد بين ملامح شكلين أو أكثر من الأشكال السابق تمييزها ، فلا يسهل بذلك إدراجها تحت شكل واحد منها .

وربما كانت حقيقة الأمر أن مراهقة أغلب الأفراد تجمع عادة بين

صنفين من العوامل ؛ بعضها عوامل بانية مؤازرة وبعضها الآخر عوامل هادمة موهقة . ولقد تسود العوامل البناة في حالة ما فتأخذ المراهقة الشكل الأول أو شيئاً قريب الشبه به ، أو تسود عوامل الإحباط والهدم فتتشكل المراهقة حينئذ بأحد الأشكال الأخرى ... على أن العوامل من النوعين — الباني والهادم — تكاد أن تتكافأ في عدد من الحالات ، فإذا بالمراهقة تتخذ شكلاً وسطياً دائماً ، يجمع بين أسباب التوافق وعدم التوافق ويتخلخل بين الحالين !

والمثل الآن يوضح مراهقة جمعت إلى الظروف القاسية المحبطة بعض الاتجاهات المشبهة التي اقترنت بها من التكيف :

لقد كان المراهق أكبر الأبناء الذكور في أسرة ريفية محافظة . ولما كانت أمنية الوالد التي لم يحققها لنفسه هي التعلم بالأزهر ؛ فقد اتجه بهذه الأمنية إلى ابنه الأكبر ففرضها عليه فرضاً . . ولم يشمر المراهق باتفاق هذه الدراسة مع ميوله واستعداداته ، فحاول مراراً أن يتحول عنها إلى التعليم المدني . والتحق سراً بأحد المأهدين الليلية لهذا الغرض ، ولكن والده علم بذلك فأعادته قسراً إلى الأزهر ! . . وكان المراهق يضيق كذلك بالزى الديني ، فخلع العمامة وأغرى آخرين أيضاً بخلعها ، مما جوزى عليه بالفصل من الأزهر فترة وبالعقاب الشديد والتأنيب من والده .

وعانى المراهق من كسر في قدمه أصابه وهو بعد طفل في الثانية ، فكانت هذه الغاية البدنية بالإضافة إلى قصر قامته قصراً حمل إخوانه على

التدريسه، من الأسباب التي أثرت في شعوره الحاد بالنقص وأدت إلى عصبية الزائدة وسرعة استفزازه . . وقد لجأ في تعويض النقص إلى ارتداء حذاء على النعل ، وإلى المبالغة في التأني حيث بلغت أربطة العنق عنده نحواً من الخمسين ! . . ولجأ أيضاً إلى وسائل تعويضية أخرى ناجحة ، استغل فيها تفوقه في الكتابة الأدبية ومقدرته على الخطابة الارجالية في المساجد . وكان يفخر بكائه واقتنائه مكتبة عامرة بالكتب . .

وأثرت ظروف أخرى على تمقيد صورة المراهقه ؛ منها فشل خطوبة أقدم عليها وهو في السادسة عشرة من عمره ، وموت أخ صغير بعد مرض بالقلب ، وفراق « شيخ كردي » كان المراهق يرى فيه مثله الأعلى إذ تعلم على يديه « انصياع والتفاني في سبيل نقاء الروح وسوء مقبة التعاق بزيف الدنيا ! »

وبالرغم من هذه الظروف ، فقد انتفع المراهق بكائه وباتجاهاته الاجتماعية والإنسانية في تكيف حياته والتغلب على الصعوبات التي واجهته — فأتجه إلى مساعدة النير وخاصة الضعيف والمحتاج ، وتصدق على الفقراء واشترك في الخدمات العامة لجمعية الإسعاف والهلال الأحمر ، وتطوع أيضاً للجهاد في فلسطين وإن منعه لفظ في القاب عن ذلك — كما منعه عن الاشتراك في الجواله من قبل — . . وقد حزن لرفض تطوعه ، ولكنه قام بدعوة للتطوع بين أصدقائه ، وأقبل على جمع المال للهيئة العربية لإنقاذ فلسطين . .

كذلك كان يكتب أحيانا في المشكلات الاجتماعية ، ونشرت له إحدى
المجلات ما كتبه عن « أولاد الشوارع » . . . وهكذا استطاع هذا
المراهق أن يوازن — إلى حد كبير — عوامل الإحباط والتمويق
في حياته ، وإن لم يمنع ذلك من تذبذب مراهقته بين صورة التوافق وعدم
التوافق ! . .
